الرحلة البكريَّة مصدرًا معرفيًّا

د. محمد فتحي الأعصر

أستاذ الأدب والنقد المشارك

بقسم اللغة العربية، الكلية الجامعية بتربة، جامعة الطائف – السعودية

ملخص

يقوم هذا البحث على دراسة النص الرحلي بوصفه نصًّا معرفيًّا ثريًّا، يحمل في طياته كل ما هو عجيب وغريب ومدهش لوقائع العصر وأحداثه زمن كتابة الرحلة، ومن هذه النصوص الرحلية- محل الاهتمام- رحلة الأديب الصوفي "مصطفى البكري الصديقي" (ت ١١٦٢هـ/ ١٧٤٩م) المسمَّاة "النحلة النصرية في الرحلة المصرية" التي تنماز بأدبيتها وخصوصيتها، وما حوته من انطباعات ومشاهدات وحمولات ثقافية: أدبية، وسردية، وتاريخية، وجغرافية، وطبية، ودينية، ومظاهر مختلفة لمصر العثمانية في القرن الثامن عشر الميلادي، قد لا نجدها في غيرها من المدونات التاريخية عن تلك الحقبة، والتي كان لها تأثير مباشر في الأفراد والدول. ولذلك وقع الاختيار على تلك الرحلة؛ لأنها تصور جوانب متعددة في حقبة زمنية كانت مجهولة عنَّا وسمها البعض بالانحطاط والتراجع، فضلًا عن أن مؤلفها من الشخصيات التي نالت مكانة مرموقة بين العامة والخاصة؛ كونه أحد مؤسسي الطريقة الخلوتية في التصوف وله الفضل في انتشارها وشهرتها، فجاب القرى والمدن المصرية حتى صور مناحيها المختلفة وأبدع في تصويرها، كأنها لوحة مرسومة بريشة فنان محب لهذا البلد.واعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي في دراسة الرحلة وتحليلها، وكشف فضائها، وما حوته من ثقافة جامعة لمصر العثمانية في القرن الثامن عشر الميلادي.وقد جاء البحث في مقدمة وثمانية محاور وخاتمة وثبت بالمصادر والمراجع، وأما المقدمة فتناولت أهمية الرحلة البكرية، والمحور الأول: مصطفى البكري الرحَّالة الصُّوفي، والثاني: فضاء الرحلة، والثالث: دوافع الرحلة وغايتها، والرابع: فتنة الرؤيا، والخامس: المظاهر الحياتية في الرحلة (الدينية، والاجتماعية، والعمرانية)، والسادس: أدبية النص الرحلي، والسابع: جغرافية الرحلة (خط سير الرحلة)، والأخير: البكري والسلطة والترويج للطريقة الخلوتية، وأما خاتمة البحث فاشتملت على النتائج.

كلمات دلالية: الرحلة، مصر العثمانية، مصطفى البكري، مصدر معرفي، القرن الثامن عشر.

Abstract

This research is based on the study of the nomadic text as a rich literary and cognitive text, it carries everything that is weird, strange and amazing for reality of the era and its events at the time of writing the journey, among these nomadic texts - of interest - is the journey of the sufi's writer "Mustafa Al-Bakri Al-Siddiqi" (Date: 1162 HJ / 1749 AD) called "Victorious Bee in the Egyptian Journey", which is distinguished by its literature and privacy, and its impressions, observations and cultural contents: literary, narrative, historical, geographical, medical, religious and various aspects of Ottoman Egypt in the eighteenth century AD, we may not find it in other historical blogs about that era, which had a direct impact on individuals and countries. Therefore, the choice fell on that trip; because it depicts multiple aspects of a period of time that was unknown to us, and some called it decadence and retreat, In addition to the fact that its author is one of the personalities who won a prestigious position between the public and the private, being one of the founders of the Khalwatiyyah method of Sufism and having the credit for its spread and fame, he toured the Egyptian villages and cities, even photographing its various aspects, and was creative in photographing them, like a painting drawn by an artist who loves this country. The research relied on the descriptive approach in describing the journey, revealing its space, and the inclusive culture of Ottoman Egypt in the eighteenth-century AD . The research came in an introduction, eight axes, and a conclusion, and it was proven by sources and references. The introduction, it dealt with the importance of the virgin journey, and the first axis: the space of the journey, the second axis: the motives and purpose of the journey, the third axis: the temptation of the vision, the fourth axis: the life aspects of the journey (religious, social and urban), the fifth axis: the literary nomadic text, and the sixth axis: the geography of the journey (line Itinerary), and the seventh axis: Mustafa AL-Bakri: the sufi's traveler, and the last axis: AL-Bakri, the authority, and the promotion of the Khalwatiyyah method. The conclusion of the research, it included the results.

Key words: Journey, Ottoman Egypt, Mustafa AL-Bakri AL-Siddiqi, Temptation of Vision, Space of Journey

■ **تقديم:**

البكريُّ واحدٌ من أشهر علماء العصر العثماني قاطبة في القرن الثاني عشر الهجري، علمًا ومنزلةً ومكانةً، فهو أحد مؤسسي الطريقة الخلوتية[1] في التصوف، ورحالة من الطراز الرفيع، له عدد كبير من الرحلات التي دوَّنها خلال زياراتِهِ المكررة للعالمين العربي والإسلامي؛ لأسباب علمية ودوافع دعوية بالمقام الأول، ومنها رحلته هذه محل الدراسة، والموسومة بـ «النحلة النصرية في الرحلة المصرية»، والتي زار فيها مصر في النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري.

إشكاليات البحث:

١- الحاجة لدراسة النصوص الرحليَّة الجديدة، والكشف عن خصائصها وميزاتها، ولا سيما النصوص الرحلية التي تتناول العصر العثماني وأدبه.

٢- الكشف عن صورة مصر العثمانية في حقبة زمنية مهمة كانت قد شارفت على المغيب في القرن الثامن عشر الميلادي.

٣- الحاجة لرصد ما حوته الرحلة من مظاهر حضارية واجتماعية ودينية وثقافية في عصر المؤلف.

أسئلة البحث: يحاول البحث الإجابة عن الأسئلة التَّالية:

١- ما دوافع الرحلة البكرية إلى مصر، وما الهدف من ورائها؟

٢- ما الأحداث والظواهر التي تضمنتها الرحلة البكرية؟

(١) تنسب هذه الطريقة إلى الشيخ محمد الخلوتي، وهي طريقة تركية، أحد فروع الطريقة السهروردية، وقد ازدهرت هذه الطريقة في مصر في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين على يد العلامة مصطفى البكري الصديقي، وقد أخذ عنه جمع غفير من المشايخ والعلماء والأعيان والعامة في عصره، والخلوتية مشتقة من الخلوة، والخلوة من لوازم هذه الطريقة، وهي خلوة للتفرّد بالله في الذكر في مكان ظاهر، والأفضل أن يكون مسجد الجماعة، وأن ينوي الفرد الاعتكاف والصوم، والأولى أن يتجرّد عن كثرة الأكل والشرب... وللتّفصيل حول هذه الطريقة ونشأتها وتقاليدها، وانتشارها، والطرق المتفرعة عنها، ومكانتها، وأذكارها. ينظر أبوشامي، علي، **التصوف والطرق الصوفية في العصر العثماني المتأخر**، (بيروت: بيسان للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٧)، ص٢٧٢- ٢٧٩.

٣- كيف كانت مصر العثمانية في القرن الثامن عشر الميلادي؟

أهداف البحث:

١- الوقوف على الدوافع من وراء الرحلة البكرية إلى مصر، والهدف منها.

٢- معرفة المظاهر الحياتية التي رصدتها الرحلة البكرية.

٣- الكشف عن صورة مصر العثمانية في القرن الثامن عشر.

أهمية البحث:

الرحلة البكرية من الرحلات المهمَّة للباحثين والمهتمين، ولا أقصد من وراء هذه الأهمية أنها رصدت أحداثًا وظواهر مجهولة عنَّا، ولا لكونها حملت في باطنها ثنائيات الأضداد من الغريب والعجيب والمرئي والمدهش أو المخاطر والأهوال والمتاعب التي لاقاها الرَّحَال في رحلته في سبيل إنجاز ما يصبو إليه من ورائها، أو ما رصدته من أماكن دينية وأضرحة ومقامات؛ بل باشتمالها على ذخيرة أدبية ومعرفية مهمة- تبعث الوهج وتعزز الثقة في النفس[١]- ربما لا نجدها في المصادر الأخرى، فضلًا عن الوقوف على صورة مصر في هذه الحقبة المهمة زمن كتابة الرحلة.

ولكن يمكن تعداد أهمية النص الرحلي البكري وميزاته في الآتي:

أولًا- كونه وثيقة حياتية، وتأريخًا -إن صحَّ التعبير- لمرحلة من الزمن، ومصدرًا جامعًا لكثير من المعارف عن هذا العصر، وهذه الحقبة من تاريخ أمتنا العربية عامة، ومصر العثمانية تحديدًا، قلَّما نجدها في غيره من المصادر الأخرى؛ فالرحلة البكرية شاهدة على عصر مضى- مغمور لأغلب القرَّاء والباحثين- بما فيه من إيجابيات ورصد للسلبيات.

ثانيًا- حوى معجمًا للتراجم شمل: الأولياء والصالحين والشيوخ والعلماء والأدباء والأصدقاء والخلَّان، أو ممن التقى بهم أو صحبهم أو زارهم في عصره أو غيره، فقد ترجم

(١) البكري، مصطفى، **النحلة النصرية في الرحلة المصرية "سفر من الشام إلى مصر ١٧٢٠م-١٧٢١م"**، تحقيق: محمد فتحي الأعصر، (أبوظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع - وبيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ٢٠٢٠)، ص١٧.

البكري للسيدة نفيسة، وترجم لسيدنا الحسين بن علي- رضي الله عنهما-، وتحدث عن واقعة مقتله، والروايات المختلفة حول مكان دفن رأسه، وترجم لصديقه الحفني، وشيخه محمد البديري الشهير بابن الميت، وغيرهم الكثير.

ثالثًا- جمع النَّصُّ الرَّحلي ديوانًا شعريًّا كبيرًا من: الأبيات والقصائد والمقطوعات والمخمسات الشعرية، والتي أغلبها من نظم البكري نفسه- ومعظمها غير موجود في مؤلفاته الأخرى- وهو ملمحٌ بارزٌ في الرحلة؛ لدرجة أن الشعر المدون في الرحلة يفوق النَّص النثري السردي المرتبط بأدبية الرحلة وفضائها، وقد غلب الوصف والغزل على الموضوعات الشعرية، وخاصة: وصف الأماكن الدينية والمقامات والزوايا والأضرحة، ومدح الأشخاص.

رابعًا- كشف النص الرحلي عن عدد كبير من البلدان والقرى والمدن والمزارات الدينية والمساجد التاريخية المهمة التي زارها البكري في مصر والديار المقدسة، بعضها مجهول بالنسبة لنا، مما يُسهم في تطوير المعجم الجغرافي الخاص في تلك المرحلة والحالة التي كانت عليها تلك البلدان آنذاك.

خامسًا- أبان النص الرحلي عن أهمية الأماكن التي زارها البكري، وتجلت هذه الأهمية في المقامات والأضرحة والمشاهد الموجودة بها، لأقطاب التصوف من الأولياء والصالحين وغيرهم الذين عاشوا ودفنوا في مصر.

سادسًا- ضم النَّص فرائد أدبية - نثرية وشعرية-، وإجازات علمية، ومسائل دينية أجاب عنها البكري، وأدعية وأوراد دينية ألَّفها ودوَّنها؛ ومن ثمَّ يجعل هذا من الرحلة قيمة مهمة، ومصدرا ثريًّا لا غنًى عنه.

سابعًا- رصدت الرحلة المظاهر الدينية والاجتماعية والسياسية والأدبية التي كانت سائدة في عصر المؤلف، كذيوع التصوف، وتنوع طرقه، وانتشار أضرحته ومقامات أوليائه.

ثامنًا- ضم النَّص عددًا من أسماء الكتب والمصادر والمؤلفات للبكري وغيره، اعتمد عليها في تأليفه: اقتباسا وتضمينا وإحالة.

ولذلك فأدب الرحلة، له جمالياته الخاصة التي تعالقت مع أنواع أدبية عدة كالسيرة الذاتية والرواية والتاريخ والمذكرات، وقد جمعت رحلة البكري (النحلة النصرية في الرحلة المصرية) بين هذه الألوان الأدبية على نحو مثير للإعجاب في مرحلة تاريخية كانت قد شارفت على المغيب بعد أن أحدثت لونا من ألوان الانقطاع التاريخي؛ مما أحدث فجوة هائلة كان لها آثارها الخطيرة في أدبنا وثقافتنا(١).

مصطلحات البحث:

الرحَّالة الصُّوفي، فضاء الرحلة ودوافعها، فتنة الرؤيا، المظاهر الحياتية، أدبية النص. جغرافية الرحلة

الدِّراسات السَّابقة:

لم يتطرق أحدٌ- فيما أعلم- لدراسة الرحلة البكرية إلى مصر دراسة تحليلية ونقدية؛ تكشف عن خصائصها وسماتها، وتبرز فضائلها، وتبين مظاهرها؛ فلا تزال الرحلات البكرية بكرًا وأرضًا خصبة تحتاج إلى مزيدٍ من الدراسات العميقة.

منهجية البحث:

اعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي في دراسة الرحلة وتحليلها، وكشف فضائها، وما حوته من ثقافة جامعة لمصر العثمانية في القرن الثامن عشر الميلادي.

حدود البحث:

يرتبط البحث ارتباطًا وثيقًا برحلة البكري المسماة (النحلة النصرية في الرحلة المصرية) التي كانت أحداثها في القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي.

إجراءات البحث:

١- التعريف بالمؤلف وإبراز مكانته بين العامة والخاصة وبيان مؤلفاته.

٢- الوقوف على جغرافية الرحلة ومدتها ودوافعها.

٣- الكشف عن المظاهر الحياتية التي عرضتها الرحلة.

(١) ينظر البكري، **النحلة النصرية في الرحلة المصرية "سفر من الشام إلى مصر ١٧٢٠م-١٧٢١م"**، ص١٧.

٤- إبراز ما تضمنته الرحلة من فوائد أدبية ومعرفية.

١. مصطفى البكريّ الرَّحَّالةُ الصُّوفيّ[١]

أ- المؤلف:

هو العلامة مصطفى بن كمال الدين بن علي بن كمال الدين بن عبد القادر، محيي الدين، الصديقي الحنفي، الدمشقي البكري[٢]. غنيٌّ عن التعريف في عصره وبعد عصره، فما زالت آثاره خالدة؛ تجلَّت في مؤلفاته العلمية، أو من خلال ما بثه في مريديه وتلاميذه من أصحاب الطريقة الخلوتية.

ترجم البكريّ لنفسه ولأسرته، وكتب عنه العلماء والأدباء والتلاميذ في عصره، وبعد وفاته، فأخباره منثورة ومبثوثة في أمهات الكتب والمصادر والمراجع المترجمة لهذا العصر.

وفي العصر الحالي ترجم له كوكبة من العلماء المتصدرين لمؤلفاته: تحقيقًا ودراسة، وكل من اقتفى أثرًا من آثاره التي أودعها لنا التاريخ.

وفي هذا المقام سنشير بإيجاز إلى حياته وسيرته ومنجزه، مهتمين برصد الخطوط العريضة حولها، فالعلامة مصطفى البكري ولد في مدينة دمشق الشام سنة ١٠٩٩هـ/

(١) **المصادر والمراجع (حسب الأقدم) التي اعتمدتُ عليها في الترجمة للعلامة مصطفى البكري هي:**

- المرادي، أبو الفضل محمد بن خليل ت(١٢٠٦هـ/١٧٩١م)، **سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر**، (بيروت: دار البشائر الإسلامية، ودار ابن حزم، ط٣، ١٩٨٨)، ج ٤، ص١٩٠- ٢٠٠.
- الجبرتي، عبدالرحمن بن حسن ت(١٢٣٧هـ/١٨٢٥م)، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، (بيروت: دار الجيل، د.ط)، ج١، ص٢٤٦ ٢٤٧.
- بروكلمان، كارل، **تاريخ الأدب العربي "العصر العثماني"**، ترجمة: عمر صابر عبدالجليل، ومحمود فهمي حجازي، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤)، القسم الثامن (١٢- ١٣أ)، ص٣٠١- ٣٠٦.
- الزركلي، خير الدين ت(١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م)، **الأعلام**، (بيروت: دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م)، ج٧، ص٢٣٩.
- السلوادي، **أعلام وشخصيات مقدسية: بحث بعنوان "الشيخ مصطفى البكري الصديقي الدمشقي المقدسي الخلوتي، حياته وآثاره"**، ص ١٩٨- ٢١٦، ويعد هذا الكتاب من الكتب التي ترجمت للبكري ترجمة وافية، وأشارت إلى أغلب مؤلفاته، وأماكن حفظها في مكتبات العالم.

(٢) ينظر المرادي: **سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر**، ج٤، ص١٩٠.

١٦٨٨م، حيث نال في صباه رعاية واهتمام ابن عمه أحمد بن كمال الدين بن عبد القادر الصديقي، وبقي عنده في دارهم[١] بعد وفاة والده الشَّيخ كمال الدِّين، وعمره آنذاك ستة أشهر، فعاش يتيمًا[٢].

ثم رحل البكريُّ عن دمشق سنة ١١٢٢هـ لزيارة بيت المقدس، فنشأ بها على أكرم الأخلاق وأكملها، آخذًا الطريقة الخلوتية عن شيخه عبداللطيف الحلبي الذي ربَّاه وغذَّاه بلبان أهل المعرفة والتَّحقيق، ففاق ذلك الفرع الأصل، وظهرت به في أُفق الوجود شمس الفضل، فبرع فهمًا وعلمًا، وأبدع نثرًا ونظمًا[٣].

وفي هذا العام ألف البكري كتابه: «الفتح القدسي والكشف الأنسي»، وهو ورد يقرأ آخر الليل لكل مريد من تلاميذ طريقته، إلا أن بعض خصومه اعترضوا عليه ووصفوه بأنه بدعة؛ في حين انتصر له الشيخ ابن قره باش[٤].

وفي شهر شعبان سنة ١١٢٢هـ عاد إلى دمشق، وانتشرت طريقته، وفي سنة ١١٢٦هـ زار بيت المقدس، ونزل في خلوة بالمسجد الأقصى.

ثم توجه إلى حلب ومنها إلى بغداد، وأقام بها شهرين هناك زار خلالها الشيخ عبدالقادر الجيلاني، وغيره من الأولياء، ثم عاد إلى بيت المقدس. وفي شهر رمضان سنة ١١٢٩هـ توجه مع عمه محمد البكري للحج إلى أن عاد إلى الشام[٥]. ثم رحل البكري إلى القدس وتزوج فيها، بعدما رفض عمه محمد البكري تزويج ابنته له[٦].

وفي سنة ١١٣٢هـ قدم الوزير رجب باشا والي مصر من دمشق إلى زيارة بيت المقدس، فزار خلالها البكري، وصار له فيه مزيد اعتقاد، فاصطحبه معه إلى القاهرة، فدخل

(١) المرادي: سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، ج٤، ص١٩٠.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) ينظر الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج١، ص ٢٤٦.

(٤) المصدر نفسه، ج٤، ص١٩١.

(٥) المصدر نفسه، ج٤، ص١٩٢.

(٦) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

مصر وأقام بها مدة زار خلالها الأولياء والصالحين، وأخذ عنه الكثيرون من العلماء والمشايخ والتلاميذ، بينما أخذ هو عن علمائها ومشايخها.

ثم عاد إلى بيت المقدس عن طريق البحر، ومكث فيه إلى بداية سنة ١١٣٥هـ، ثم سافر بعدها إلى طرابلس وحمص وحماه وحلب، ومنها إلى دار السلطنة العثمانية استانبول(١).

ثم عاد إلى بيت المقدس سنة ١١٣٩هـ عن طريق حلب وبغداد ودمشق. وفي أوائل ذي الحجة سنة ١١٤٠هـ، ولد له شيخنا السيد محمد كمال الدين(٢).

وقد تعددت رحلات البكري شرقا وغربًا في أنحاء العالم العربي الإسلامي أشارت إليها كتب التراجم وفهارس الكتب.

ب- مشايخه:

اهتم البكري منذ طفولته بالعلم ورجاله، فتتلمذ على يد مشايخ وعلماء عصره؛ منهم: الشيخ عبد الرحمن السليمي، الشَّهير بالمجلد، والشيخ محمد أبي المواهب الحنبلي، والشيخ محمد بن إبراهيم الدلدكجي، والملا إلياس بن إبراهيم الكوراني.. وأجاز له الشَّيخ محمد بن محمد البديري الدُّمياطي، الشَّهير بابن الميت..(٣).

ومن مشايخه أيضًا: الشيخ محمد بن أحمد عقيلة المكي، والشّهاب أحمد بن محمد النخلي المكي، والجمال عبد الله بن سالم البصري المكي، والجميع أجازوا له.

وقد أخذ الطريقة النقشبندية عن القطب العارف السَّيد مراد الأزبكي البخاري النقشبندي، والشيخ عبد الغني النابلسي الذي كان يُثني عليه كثيرًا .. وعن غيرهم الكثير(٤).

ج- منزلته وموسوعيته:

نال البكريُّ الكثير من الألقاب والرتب والمنزلة الرفيعة بين علماء عصره، حيث نجد

(١) الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج٤، ص١٩٢.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) ينظر المرادي، **سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر**، ج٤، ص١٩٢.

(٤) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

المرادي قد عدَّد مناقبه قائلًا: «الأستاذ الكبير، والعارف الرباني الشَّهير، صاحب الكشف، والواحد المعدود بألف، كان مغترفًا من بحر الولاية، مقدمًا إلى غاية الفضل والنهاية، مستضاءً بنور الشَّريعة، رطب اللسان بالتلاوة، صاحب العوارف والمعارف، والتآليف والتَّحريرات، والآثار التي اشتهرت شرقًا وغربًا، وبعد صيتها في الناس عجمًا وعربًا. أحد أفراد الزَّمان، وصناديد الأجلاء من العلماء الأعلام، والأولياء العظام، العالم العلامة الأوحد، أبو المعارف قطب الدين»[١].

كذلك أضفى عليه الجبرتي الثوب الصوفي، فقال: «الأستاذ شيخ الطريقة والحقيقة، قدوة السالكين ومربي المريدين، الإمام المسلك»[٢]. ووصفه الزركلي بالموسوعي، قائلًا: كان «كثير التصانيف والرحلات والنظم»[٣].

د- وفاته ورثاء العلماء له:

في شهر ربيع الثاني من سنة ١١٦٢هـ/ ١٧٤٩م ألمَّ المرض بالبكري، واشتد عليه، فتوفي ليلة الاثنين الثامن عشر من هذا الشهر، ودفن في تربة المجاورين بالقاهرة، وقبره مشهور يزار ويتبرك به، ورثاه ولده السَّيد كمال الدين البكري بقوله:

هذا مقام القطب مفرد وقته أصل الحقيقة فرعها الحدثاني
هو مصطفى البكري سبط محمد نجل الصديق الخلوتي الرباني
لا زال يسقى تربه من صيب هطل يساق برحمة الرضوان[٤]

ورثاه المرادي قائلًا: كان «من أفراد العالم، علمًا وعملًا وزهدًا وورعًا وولايةً- قدس الله روحه ونور مرقده وضريحه، وتتابعت له الصلاة الغيبية في البلدان إلى تمام عامه برحمة المنان-، ورثاه كل شعراء عصره، فرحمه الله تعالى ونفعنا به آمين»[٥].

(١) المصدر نفسه، ج٤، ص١٩٠.
(٢) ينظر الجبرتي، **تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج١، ص٢٤٦.
(٣) ينظر الزركلي، **الأعلام**، ٧: ٢٣٩.
(٤) ينظر المرادي، **سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر**، ج٤، ص٢٠٠.
(٥) المصدر نفسه، الصفحة نفسها؛ الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج١، ص ٢٤٧.

وقال الجبرتي في رثائه: «أوتي مفاتيح العلوم كلها، حتى أذعن له أولياء عصره ومحققوه، في مشارق الأرض ومغاربها...وعم مدده سائر الورود، ومناقبه تجلُّ عن التعداد»[١].

ه- مؤلفاته:

ترك البكريُّ مؤلفات كثيرة تنوَّعت عناوينها، واختلفت مضامينها، فذكر المرادي أن مؤلفاته وصلت ٢٢٢مؤلفًا، وكلها لها أسماء تخصُّها، مذكورة في أوائلها. وله نظم كثير، وقصائد جمة، خارجة عن الدَّواوين تُقارب اثني عشر ألف بيت[٢]. ومنها[٣]:

- السيوف الحداد في أعناق أهل الزندقة والإلحاد.
- الذخيرة الماحية للآثام في الصلاة على خير الأنام.
- المورد العذب لذوي الورود في كشف معنى وحدة الوجود.
- الصلاة الهامعة في فضائل الخلفاء الأربعة.
- الضياء الشمسي على الفتح القدسي.
- بلغة المريد "أرجوزة في التَّصوف".
- أرجوزة في الشمائل.
- فوائد الفرائد.
- منظومة الاستغفار.
- المنهل العذب السائغ لورَّاده في ذكر صلوات الطريق وأوراده.
- رحلاته: ومنها:
- الخمرة الحسية في الرحلة القدسية. كانت سنة ١١٢٢هـ/ ١٧١٠م.
- الخطرة الثانية الأنسية للروضة الدانية القدسية. كانت سنة ١١٢٦هـ/ ١٧١٤م.

(١) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٢) ينظر المرادي، **سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر**، ج٤، ص ١٩٩٥- ٢٠٠.

(٣) حصر بروكلمان مؤلفات البكري، وأماكن حفظها في مكتبات العالم بالتفصيل في معرض ترجمته له، ينظر كتابه: "تاريخ الأدب العربي: العصر العثماني"، القسم الثامن (١٢- ١٣أ)، ص٣٠١- ٣٠٦.

- الحُلَّة الذهبية في الرحلة الحلبية. كانت سنة ١١٢٨هـ/ ١٧١٦م.
- تفريق الهموم وتغريق الغموم في الرحلة إلى بلاد الروم.
- الحلة الفانية "رسوم الهموم والغموم في الرحلة الثانية إلى بلاد الروم".
- كشف الصَّدا وغسل الران في زيارة العراق وما والاها من البلدان.
- النِّحلة النصرية في الرحلة المصرية. محل الدراسة والتحقيق.
- رد الإحسان في الرحلة إلى جبل لبنان.
- برء السقام في زيارة برزة والمقام.

وتكشف لنا المؤلفات الكثيرة للبكري- رحمه الله- عن فطنته وذكائه، ومصادر ثقافته المتنوعة بحيث غدى موسوعيا، يتسم بثقافة خصبة وشاملة، استوعبت معارف عصره مع غلبة الطابع الديني الصوفي العرفاني على هذه المصنفات(١).

٢. فضاء الرحلة:

انطلقت رحلة البكري من القدس مرورًا بالخليل ووصولا إلى القاهرة، وكان ابتداؤها في شهر جمادى الثاني سنة ١١٣٢هـ الموافق لشهر إبريل سنة ١٧٢٠م، وفي ذلك يقول البكريُّ: «ثم لما دخل جُمَادى الثَّاني، تَحرَّك جُمَادَى للتَّداني؛ وذلك من شُهُور اثنين وثلاثين ومئة بعدَ الألفِ الهجريَّةِ بيقينٍ، أردنا أن نزور الخليل الجليل- عليه صلواتٌ وتسليماتُ الجَلِيلِ-؛ ومنها القصدُ السَّيرُ إلى القَاهرةِ ذات الرُّبوعِ المريعةِ الزَّاهرةِ، فتَيسَّرت الزِّيارة، ولم تكن غارةً؛ بل أقمنا أيامًا ذاتَ عدد نقضي أشغالًا، ولا ننتظرُ الرُّبَاعةَ والمدد»(٢).

ولكن البداية الفعلية لزمن الارتحال كان بعد انقضاء - الشهر المعظم - شهر رمضان من العام نفسه (أي في شهر شوال)، بصحبة والي مصر رجب باشا، يقول البكري: «وعُدنا إلى الأماكنِ المقدَّسة التي على التَّقْوى مُؤسَّسةً، وأقمنا فيها إلى أن مضى شهرُ

(١) ينظر السلوادي، حسن، **أعلام وشخصيات مقدسية**، ص٢١١.

(٢) المصدر نفسه، ص٦٥.

الصِّيام والقيام –عمَّرها اللهُ وغمرها بِبِرِّه إلى يوم القِيامة»[1].

ويقول: «وفي شوالٍ المبَارك –البدء والختام– توالت أخبارٌ لها عرف مسْكَ الختامِ، أنَّ جناب الدُّستور المكَرَّم، والمشيرَ المفخم، الحاج رجب باشا تولَّى الدِّيار المصريَّة، ومُرَادُه زيارة الأراضِي القُدْسِيَّة والخَليليَّة، ومنها ينزلُ إلى العريش، ولجَناحِ السَّفَرِ إليها يَرِيش، وهو مِمَّن له معنا صُحْبةٌ ومودَّةٌ، أكَّدتها صَدَاقةٌ ومحبةٌ منْه من طَويلِ مُدَّة.... فدعا الفقير لصحبته إلى الكنانة »[2].

أمَّا تاريخ العودة والوصول إلى القدس بعد انتهاء رحلته إلى القاهرة؛ فلم يحدده البكري مباشرة كما فعل في بداية رحلته، ولم يذكر المدة التي استغرقتها الرحلة: ذهابًا، وإيَّابًا.

ولكن المتتبع للتواريخ المذكورة في النص الرحلي، يستطيع أن يرصد تاريخ وزمن وصوله إلى القدس؛ حيث نجد أن عودته أولًا إلى الديار الفلسطينية كان ليلة السبت في ٢١ من شهر رجب لسنة ١١٣٣هـ الموافق ١٨من شهر مايو سنة ١٧٢١م بوصوله إلى مدينة يافا عائدًا من الديار المصرية– وتحديدًا من مدينة دمياط– عن طريق البحر. ثم أكمل البكريّ المسير إلى مدينة القدس، لكنه لم يحدد تاريخ الوصول إليها، ولا المدة الزمنية المستغرقة من يافا إلى القدس، ولا المدة التي استغرقتها رحلته.

إلا أننا نعتقد أن البكريَّ قد وصل إلى مدينة القدس في مطلع شهر شعبان لسنة ١١٣٣هـ– أي أن الزمن المستغرق بين يافا والقدس لا يتجاوز أسبوعًا أو أسبوعين على الأكثر–؛ لأن المسافة الطولية بين مدينة يافا والقدس لا تتجاوز الـ (٦٥) كيلو متر.

وبالنسبة للمدة الزمنية التي استغرقتها الرحلة في الذهاب والإيَّاب فنستطيع القول: بأن الزمن الذي أمضاه المؤلف في رحلته بلغ أربعة عشر شهرًا هجريًّا من تاريخ انعقاد نيته لرحلته للقاهرة، أي في شهر جمادى الثاني لسنة ١١٣٢هـ.

أما إذا أردنا أن نحسب المدة الزمنية الحقيقية للرحلة بداية من قرار الانطلاق الحقيقي

(١) البكري، النحلة النصرية في الرحلة المصرية "سفر من الشام إلى مصر ١٧٢٠م–١٧٢١م"، ص٧٠.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

في شهر شوال لسنة ١١٣٢هـ فإنها تصل لقرابة العشرة أشهر هجرية.

ويمكن القول بأن هذه الرحلة "قد رسمت لنا خريطة ملوّنة للحياة بكل أبعادها خلال تلك الحقبة الحافلة بكل غريب وعجيب ومدهش يثير التلقي[١].

٣. دوافع الرحلة وغايتها:

أشار البكريُّ في مقدمة نصِّه الرّحلي عن الدافع من وراء رحلته، وهو التوقُ والتلهُّف لزيارة القاهرة، وآثارها الخالدة. يقول: «طَالما كانت النَّفسُ تتشـوَّقُ وتتشـوَّفُ لزيارة القَاهرة، التي بمحاسـنها لغير محاسـنها قاهرةٌ، وكنتُ أُمنّيها، ولها أُعَلِّلُ؛ فلا تتعلَّل؛ بل تترجَّى وتُؤمَّل!»[٢].

والدافع الثاني والأرجح، هو تلبية دعوة والي مصر رجب باشا لمصاحبته في رحلته إلى الدِّيار المصرية، وقت وجوده في القدس عائدا من دمشق الشام، وقد عبَّر البكريُّ عن تململه من رحلته إلى القاهرة لعدم استعداده الاستعداد الكافي، وخشيته من المخاطر والأهوال التي قد تحدق به في أثناء سفره. يقول: «ولم نجد لحُصُول الوعْدِ خلاصًا عن هذا الرَّحيل، فرأيناه (يقصد الوالي رجب باشا) – عاملَهُ اللهُ بلُطْفِه الجميل– قد نصب لنا خيمةً ذات ظلٍّ ظليلٍ، وعيَّن ما نحتاجُ إليه من كثيرٍ وقليلٍ، ولم يكن هذا المسـير ممَّا تعلَّق به الخَاطِرُ؛ لأنَّ فيه ما فيه من المهاوي والمخاطر، وما اسـتعدَّينا له كما ينبغي لظننا بُلُوغ ما نبتغي، ومن هذه المحطَّة، ودَّعنا من معنا، وقُلنا حِطَّة»[٣].

وهناك سبب آخر إضافة للسببين السابقين، وهو زيارة الأماكن الدينية والأضرحة ومقامات الأولياء والصالحين، ومقابلة مشايخه، وخاصته من الأصدقاء والخلان، فقد دوَّن النص الرحلي زيارات ولقاءات ومسامرات كثيرة للبكري مع محبيه.

---

(١) البكري، **النحلة النصرية في الرحلة المصرية "سفر من الشام إلى مصر ١٧٢٠م–١٧٢١م"**، ص١٩.

(٢) المصدر نفسه، ص٦٣– ٦٤.

(٣) المصدر نفسه، ص٧٢.

٤. فتنةُ الرُّؤيا:

إن النصَّ الرحلي دائما ما يحمل في باطنه الغريب والعجيب والافتتان بالآخر، هذا الآخر الذي تكوَّن من خلال المشـــاهدات الواقعية والرؤى المباشـــرة واللقاءات والزيارات والمغامرات، إضافة لتلك الخلفيات والمرجعيات الثقافية التي يحملها الرَّحَّال في جعبته عن البلد المزار؛ ولذلك يعبر عن اندهاشه وافتتانه به بمجرد شعوره باختلاف الآخر عنه مكانيًّا وثقافيًّا واجتماعيًّا وحضاريًّا، آملًا في اكتشاف الآخر الغريب ومعرفته.

وقد وصـف محمد السـويدي أدبية الرحلة وجمالياتها الفنية، وأهميتها، بأنَّها عبارة عن «لوحات فنية مدهشـة، ومشـاعر حميمة، وخلجات وجدانية فياضـة، وخواطر وانطباعات، وصـور ترصـد المرئيات، وحدس شـاعري، وابتكار فني وجمال في التعبير، خيال يعانق الواقع، ويوقظ الـذاكرة، فيـأتي بالممتع والمـدهش، بلـدان قريبـة وبعيـدة، أمـاكن جـديـدة وزوايا لم تستكشف.. تلك هي الرحلة، ومن هنا يبدأ الاكتشاف والتغيير، اكتشاف المكان واكتشاف الذات سعيا وراء فهم حقيقي لها»(١).

ومن نماذج الإعجاب وصـــور الانبهار والافتتان بالآخر، أن البكريَّ عند دخوله القاهرة، ومشـــاهدته الحية والمباشـــرة لجمال مبانيها وآثارها، فقد رآها مدينة جمعت محاســـن خطيرة. يقول ««ولما دخلنا مصر القاهرة شهدنا مدينةً مُدْنِيةً للأمَانِي، بالمبانِي الفاخرةِ، ورأينا فيها أشـــياءً كثيرةً، لم نرها في غيرها من المدن الشَّـــهيرة، فتحقَّقْنا أنَّها بلدة جمعت محاســـن خطيرةً».

وقد أسـعفته ذاكرته وقوة حافظته في التعبير عن دهشـته، ولم يصـفها بأنها قرية كبيرة كما نقل البعض، لكنه استشهد بالمقولة المنسوبة للإمام الشافعي – رحمه الله– بأنني: «كنت أظنُّ أن مصر في الدُّنيا، فرأيتُ الدُّنيا في مصر»(٢).

(١) ينظر الدرعي، أحمد بن محمد بن ناصر، **الرحلة الناصرية**، تحقيق وتقديم: عبدالحفيظ ملوكي، (أبوظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١١)، ص ٨.

(٢) لم أعثر في المصادر التي بين يدي على نسبة هذه المقولة للإمام الشافعي، رحمه الله.

٥. المظاهر الحياتية في الرحلة:

رصد النصُّ الرحلي بعض المظاهر والقضايا اللافتة في عصر البكري، التي تستحق منَّا أن نُبرزها، ونُلقي الضوء عليها، وإن لم تكن بارزة البروز الكافي؛ نظرا لعدم اهتمامه بالتعرض لها؛ لذا كان الاهتمام منصبًّا على الجانب الديني فقط، والعمل على نشر طريقته، وهي:

أ- المظهر الديني:

يُعد المظهر الديني من أهم المظاهر المهيمنة على الفكر والثقافة والأدب وغيره في هذا العصر، وأقصد بذلك ذيوع الفكر الديني الصوفي وتنوع طرقه، وانتشار مقامات وأضرحة أوليائه- انتشار النار في الهشيم- بين عدد كبير من أبناء العالم العربي والإسلامي آنذاك.

وقد طغى هذا الفكر الصوفيُّ على العقول وأثر تأثيرًا مباشرًا في الحياة عامة، والتأليف خاصة، حيث تحولت لغة الكتابة الأدبية تحديدًا، والثقافة عمومًا، إلى ما يشبه المسخ الصوفي، بحيث صار أسلوبها مصطنعا من لغة التصوف، وقد لمس هذا الأمر عددٌ من العلماء- في العصر الحديث- المتصدرون دراسة هذا العصر ومعرفة قضاياه.

ولم تنجُ لغة المدونات الرحلية من هذا الصنيع، فاصطبغت بالصبغة الأدبية والدينية الصوفية معًا، والسبب في ذلك راجع- كما ذكرته زينب بيره جكلي- إلى أن كثيرا من كُتّاب هذا العصر كانوا شعراء وعلماء، فالشاعر عبدالغني النابلسي كتب رحلة إلى الحجاز بعنوان: «الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى الحجاز» وهي رحلة تتحدث عن زيارته للأماكن الدينية، وللمزارات الصوفية، وهي مليئة بالفكر الصوفي[١]، وكذلك جُلّ رحلات البكري- الذي تجاوز عددها اثنتي عشرة رحلة- فيما أعلم-، مرتبطة بالمزارات الدينية والمقامات والزوايا وغيرها، حتى أثرَّت على لغة الكتابة، فعملت على إماتتها.

ومن تلك الصُّور قول البكري في مدح الولي والقطب الكبير أحمد البدوي: «وفي يوم السَّبت المنير، بعد وداع صغير، أهل القرافة والكبير، سابع جُمادى الثاني توجَّه الفقير، نحو مجموع البركات، وينبوع الكرامات، ذوات الحركات، صاحب الأحوال الباهرة، والخوارق

(١) جكلي، زينب بيره، **النثر في عصر الدول المتتابعة**، (عمَّان: دار الضياء للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧)، ص٢٨٩.

الطوال الظاهرة، السَّيد الأمجد، والسَّند الأوحد، أبي الفرحات المحمود أحمد، المكنَّى بسلطان الرجال، وأبا الفتيان السّكاري، البدويّ الحسني العلوي، مطلق قيد الأساري. صحبةُ الأخّ الأمجد الشَّيخ محمد الحفناوي- خلَّصه الله تعالى من جميع المساوئ- وأخيه الشَّيخ يوسف، والأخ الحَسَن، الشَّيخ حسن، والسَّيد عبدالله السّلفيتي، نجل الأخ السَّيد محمَّد المرحوم الأحسن، ومعي الأخُّ الدَّاني، لا القاصي، إبراهيم الحرستاني، المعروف بالبلاصي»[1]. فالمبالغة في المدح والثناء، والتلاعب بالمصطلحات وإضفاء الألقاب الصوفية بدون داعٍ كان ديدنه، والنماذج على ذلك كثيرة.

ب- المظهر الاجتماعي:

من المظاهر التي تستحق الذكر، ظاهرة كرم الضيافة، وحسن الأخلاق، وهو ما تمتع به أهل مصر، وقد لمس البكريُّ هذا الأمر عند مضيفيه في تنقلاته ومزاراته في ربوع البلدان المصرية، ومن صور ذلك قوله: «وبعد العصر، حضر عندنا فاضل من فضلات العصرِ، وهو بصير في الأمورِ بصير، يدرس في الجامع، قريبًا من الإمام ذِي النُّور اللامع، وهو شريكُ الأخ محمَّد علي المرحوم، جناب الشَّيخ أحمد الخليفي الأوحد، فدعانا لداره وضمَّتنا القافيةُ، ووصلناها والصّفا كُؤوسُهُ وافية... وودعنا الداعي، جميل المساعي، بعد قيامه بأمر الضَّيافة، وإكرامه أضيافه..»[2].

ومن مظاهر الكرم الحاتمي في مصر قوله عندما وصل فارسكور[3]: «ولما وصَلْنَا فَارسكُور توجَّه الصَّديقُ المعرُوفُ، لا المنْكُورُ، إلى زيارة الشَّيخ ابن مدين الحداديّ، وكانتْ ليلة مولِدِه، والفُقَراء يَسْعَوْنَ إليه من كُلِّ نادي؛ فقَرَأنا له الفاتحة وما معَها، ودعوتُ الله تعالى أن يفتح سمع الرَّوحِ ويسْمَعها. وزُرْنا على إثره الشَّيخَ إبراهيم الأحمديّ، ذي العُرْف النَّديّ، طويلُ النّجاد، كثير الرَّماد؛ فقدَّم لنا رُز حليب، فأكلتُ لُقَيْمَاتٍ، وزادُ الفُقَراء يطيبُ، وصلَّينا الصُّبح

(١) البكري، **النحلة النصرية في الرحلة المصرية "سفر من الشام إلى مصر ١٧٢٠م-١٧٢١م"**، ص١٦٠- ١٦١.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٦٨.

(٣) فارسكور: إحدى مدن محافظة دمياط بجمهورية مصر العربية.

في جامعها الكَبِير، المِحَاكِي للرَّوض النَّضير»[١].

ومن الصـور الأخرى، إكرام شـيخه البديري له عند نزوله في خلوته، يقول البكري مصـورًا ذلك: «ونزلتُ في خُلْوةِ شـيخنا الشـيخ مُحَمَّد البديري، الهمام التي في جامع البحر المعدَّة للورَّاد على الدَّوام. وصـار الشـيخ يتردَّدُ علينا ويوصـل تعطُّفاته إلينا، ونحن – بحمد الله تعالى – في حظ وافر، وبسطٍ سافرٍ، ودعانا لداره، وأكرمنا في جواره»[٢].

ورصدت المدونة الرحلية ظاهرة حالة التردي الأمني وانتشار السرقة، وتدني الأخلاق، والانهماك في المسكرات، وشيوع الفسق والفجور بين أوساط الناس في منتصف القرن الثاني عشر الهجري في تلك الحقبة.

وقد أرجع جرجي زيدان أسباب انتشار هذه المظاهر في المجتمع إلى وقوع الظلم على الرعية بفعل سوء الإدارة العثمانية. يقول: «وسوء الإدارة أفسد على الناس نياتهم، فتشوشت أفكارهم، وانصرفوا عن تلك المظالم، من المخدرات والمسكرات... ومن عواقب المظالم انحطاط الآداب العامة، بفساد الأخلاق، فشاعت قلة الحياء، وظهرت آثار ذلك في آداب اللغة»[٣].

ومن صور انتشار مثل هذه الممارسات السلبية في المجتمع، قول البكري مبرزًا ظاهرة السَّرقة، وعدم الإحساس بالأمن، والشعور بالطمأنينة بين الناس: «ولم أزل أسير كسير، كسير أسـير، إلى قرية المرحوم، كأنما أُطلقت من قفصٍ أو حصـيرٍ يطلُبه حصـير، إلى أن عديتُ في المعدِّية إلى قرية المرحوم، وبِتُّ عند صاحبٍ أكفُّه نديَّة براحة الضَّيفِ يَقُوم. وجاء السُّرَّاقُ في الليل، لكي يسـطُو على الخيل؛ فَخَيَّبَ اللهُ تعالى مسـعاهُم؛ لأنَّ عين العناية ترعانا وترعاهم»[٤].

ومن انتشـار السـرقة إلى الانهماك في الفواحش والمسـكرات، يقول البكري راصـدًا

(١) البكري، **النحلة النصرية في الرحلة المصرية "سفر من الشام إلى مصر ١٧٢٠م–١٧٢١م"**، ١٧٣.

(٢) البكري، النحلة النصرية في الرحلة المصرية "سفر من الشام إلى مصر ١٧٢٠م–١٧٢١م"، ١٧٥.

(٣) ينظر: **تاريخ آداب اللغة العربية**، راجعها وعلق عليها: شوقي ضيف، (القاهرة: دار الهلال، د.ت)، ٣: ٢٩٢.

(٤) البكري، **النحلة النصرية في الرحلة المصرية "سفر من الشام إلى مصر ١٧٢٠م–١٧٢١م"**، ١٦١.

ملامح هذه الظاهرة عند فئة من طبقات المجتمع- وهم سائقو السُّفُن والقائمين على أمرها- أثناء ركوبه البحر في عودته للديار القدسية من مدينة دمياط المصرية إلى يافا الفلسطينية: «وقطعنا العتبة أول النَّهار، والبحر ساكنٌ، والقلب- بعونِ الرَّب- راكنٌ، ووصلنا الشَّيطية، وأجلستُ في القُمْرَةِ التَّحتيَّة، وأعددتُ نزولي فيها من الذُّنُوب السَّوالف، حتى جرى الدَّمعُ على الخُدود والسَّوالف. ولقد كنتُ أتطير من النُّزول في المغفر، لما أسمع من تعاطيهم المنكر، ولما عرف مستأجر المركب قُطْبَانه فينا، أخذ يلاطفنا ويصافينا، حتى أنَّه أذاب ماءً وسكَّرًا ممزوجًا بماء الليمون، وأتاني به؛ فلم أقبله خوفًا من نجاسة الماعُون، فنادى المستأجر، وأخبره بطهارته، فأعلمه بعدم شربه»[1].

ونستطيع أن نفهم من النَّماذج السَّابقة أنَّ الأوضاع الأمنية المتردية وانتشار بعض أعمال السرقة في المجتمع، وتدني أخلاق الرعية، والرغبة في تعاطي المنكر؛ إنما راجع بالأساس لمستويين: الأول: حالة الجهل الثقافي، والثاني: تردي الأوضاع الاقتصادية لطبقات المجتمع المختلفة وسوء أحوالها، مما تتسبَّبَ في خروج هذه الأمراض الخطيرة على السطح؛ فعرضت حياة الناس للخطر، وفتكت بالدولة، وعملت على إزالتها.

ج- المظهر السياسي:

حالة التردي التي ذكرناها آنفا يسبقها دائما الحالة السياسية للدولة العثمانية التي كانت في أسوأ أوضاعها، نتيجة لسوء الإدارة والابتعاد عن الرعية، وعدم الاهتمام بأحوال الولايات العربية الخاضعة تحت سيطرتها، وانعدام الكفاءة في الولاة، الأمر الذي سبب معه ضياع هيبة الدولة، وتفكك بنيتها، وقتل الأمل في الإصلاح، وتمنى الرعية زوال هذا الحكم عنهم. فمن علامات الفساد الإداري البارزة أن عدد الولاة الذين حكموا مصر إبان الحكم العثماني يربو عن (٢٠٠) والٍ، وهذا العدد الكبير أفسد الحياة والناس.

ومن صور ضعف الدولة آنذاك: انتشار عمليات الخطف والأسر، وقد عرض البكريُّ لواقعة تعرض فيها أحد مريديه للخطف والأسر من اللصوص، يقول: «وكان لحقني

(١) المصدر نفسه، ٢١٩- ٢٢٠.

إلى القاهرة أخٌ اسمُه عثمان- نفسه له قاهرة- وجاء عن غير إذنٍ مِنّي، فلم يستفد إلا التعني. وكان وهو في الشام حصل له نوعُ إقبالٍ وإقْدَام...وأمرته أن يركب من المِغْفَر في شيطيةٍ، فركب قياسةً، فأُسرتْ دُون غيرها، وأُخِذَ إلى ملطيَّة، فحزن القلبُ عليه، ولم يُطِقْ ردمًا- أوصله مولاه إليه-. وما وسع العبد المِلْتاعُ، إلا الحَوْقَلَة والاسترجاع؛ ولو جيء بها كعادتهم أحيانًا إلى الثَّغر، لهرع أهله إلى شراء الأسرى، وزالَ من الصَدْرِ الوغر، وكنَّا ربما نشتريه، ولو قابل بالإعراض، بما أمكن من نُقُودٍ وأعراض، لكن ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾[١]، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾[٢]»[٣].

د- المظهر العمراني:

اهتم البكريُّ في رحلته إلى مصر بوصف الأماكن التي زارها بإيجاز، وخاصة المزارات الدينية، والمقامات والزوايا وأضرحة الأولياء والصالحين، كالمشهد الحسيني، ومقام البدوي والسيدة نفيسة وغيرهم، فضلا عن الأماكن الدينية، وخاصة مساجد القاهرة التاريخية، كمسجد عمرو بن العاص وغيره.

فالرحلة البكرية إلى مصر القاهرة رحلة دينية بالأساس، ترنو إلى الاهتمام بالتصوف وأقطابه ومشايخه ومعتقده من التلاميذ والمريدين.

لذلك خلت الرحلة البكرية من أية إشارات إلى دور العلم والثقافة، كالمدارس والمعاهد والمكتبات أو أماكن التجمعات العلمية في مصر العثمانية آنذاك.

ومن صور العمران ومظاهر الافتتان بالحضارة المصرية فتنة البكري بالقاهرة العتيقة بمجرد أن وطأة قدماه إياها، فصور لنا هذا المشهد في نصه أحسن تصوير، قائلًا: «ولما دخلنا مصر القاهرة، شهدنا مَدينةً مُدنيةً للأماني بالمباني الفاخرة، ورأينا فيها أشياء كثيرة، لم نرها في غيرها من المدن الشهيرة، فتحققنا أنها بلدة، جمعت محاسن خطيرة، ولم نقل كما نقل عن البعض:

(١) سورة الإسراء، آية ٥٨.

(٢) سورة الأحزاب، آية ٣٨.

(٣) البكري، **النحلة النصرية في الرحلة المصرية "سفر من الشام إلى مصر ١٧٢٠م-١٧٢١م"**، ٢١٢.

إنها قرية كبيرة؛ بل نقول كما قال الشافعيّ الحجة الواضح المحجة: كنت أظن أن مصر في الدنيا، فرأيت الدنيا في مصر»[١].

ومن النماذج العمرانية وصفه لمقام "البدوي" أثناء زيارته له، بصحبة بعض رفاقه، يقول: «ولما نزلنا في البلدِ، جوار سَيِّدي أحمد، عند صديقٍ يُحْمَدُ، عمدنا الزِّيارة، وكانت وقتَ المولدِ الصَّغيرِ، وبدأنا ببَابِ الأستاذ، ووزيره الأعظم الكبير، صاحب هذا المولد سيِّدي عبد العال الخفير– قدَّس اللهُ سرَّه المنير...ثمَّ تقدَّمتُ إلى باب قُبَّة السَّيد البدويّ، صاحب المقام المعلوم، ودخلْتُ القُبَّةَ عليه، وقمتُ بين يديه، ثم جلستُ لديه متشفعًا به إليه. وكان الرفيق الرَّقيقُ، رفيق كُلّ معنًى رَقِيقٌ، الشَّيخ محمَّد الأحمد الحفني معي، وبقيَّة الرفاق من كُلِّ ألْمَعِي، وأطلنا الزِّيارة عنده»[٢].

٦. أدبيَّةُ النَّصِّ الرّحلي:

يبدو أن البكريَّ كغيره من مثقفي عصره قد التزم بالنمط التقليدي السَّائد في الكتابة القائمة على الإكثار من المحسنات البديعية والزخارف اللفظية، وتعداد مناقب الممدوح، والمغالاة في وصفه وذكر محاسنه، وإثقال العبارة النصية بالمبالغات الممقوتة والحشو الزائد، والتي لا تضيف شيئا جديدًا للنص سوى التكرار الممل؛ لذلك جاء أسلوبه الأدبي ركيكًا هشًّا– أحيانًا– بعيدًا عن تقنيات الأسلوب الأدبي المتعارف عليه[٣]، ومع ذلك فأسلوبه يمتاز بالرصانة والجودة والبراعة في معظمه.

ومن تلك المبالغات في تعداد الألقاب قوله البكري في وداع أصدقائه وخلانه قبل عودته إلى القدس: "ثُمَّ عَزَمْنَا يَوم السَّبْتِ على التَّوجُّه المنِيرِ إلى العِزْبَةِ مع رِفاقٍ حُبُّهُم خَطِير، وحَضَرَ لِلْوَدَاعِ العَالِمُ الفَاضِلُ، والكَامِلُ الفَاصِلُ، أعْرَفُ مُنَاضِلٍ، الشَّيخُ أحْمَد الاسْقَاطِي، الملحُوْظ

(١) المصدر نفسه، ١٦١.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) وصف حسن السلوادي شعر البكري وخصائصه وتشابهه مع الشعر السائد في عصره قائلا: «شعر الصديقي من حيث اللغة والأسلوب والتراكيب وطرائق التعبير لا يخرج عن نمط الشعر المألوف فيه خصائص هذا الشعر كافة سواء من حيث الشكل أو المضمون». ينظر أعلام وشخصيات مقدسية، ٢٠٧.

بالسِّرِّ الإحاطي –كانَ اللهُ لَهُ فِي كُلِّ حَالٍ، ومنَحَهُ زَائِدَ الأحْوَالِ، وقَائِدَ النَّوَالِ، وعَوَائِدَ فَوَائِدِ الجَمَالِ؛ فَإنَّه نَفَعَ اللهُ بِعُلُوْمِهِ، وَرَفَعَ الإشْكَال بِسَافِر فُهُومِه– لَهُ سَابِقُ عَلاقَة، ولاحِقَ مَحَبَّةٍ بِطَلاقَة...."(١).

نجد في النص السابق مغالاة في تتبع مناقب ممدوحه– ولا عجب في ذلك – فهذا الأسلوب كان ديدن معظم أدباء عصره، فكانوا يتبارون في ذلك فيما بينهم؛ لأنه معيار جودتهم، ومن يحيد عن هذا النهج وسموه بالضعف والركاكة...

ويعد السجع من الأساليب اللفظية التي ارتكز عليها البكري في رحلته وبنى عليها جمله وفقراته، فلا يستطيع الفكاك منه، وهو شيء عادي عند كثير من الأدباء آنذاك، من ذلك قوله:

"ثُمَّ ودَّعَ الأخَّ الحَسَن– صَاحِب الفَضْلِ واللّسنِ– وأوصَى بعَدَمِ النِّسْيانِ، وأظْهرَ أسَفًا على فَقْدِ هذا الوجْدَانِ، واسْتَجَزْتُهُ بكُلِّ ما لَهُ من إسْنَادٍ فأجازَ، وفعَلَ كالأوَّلِ بَلَغَ المرَاد. وبَعْدَ أنْ وَدَّعْنَا الإخْوَانِ والخِلَّانِ، والأحْبَاب الحِسَان، والأحْدَان، توجَّهنا إلى العِزْبة، وبِتْنَا فيها بلَيْلَةٍ عزْبَة"(٢).

ونلاحظ بأن أسلوب البكري واحدٌ في معظم كتاباته الرحلية، سواء في الرحلة المصرية أو في غيرها، فالإكثار من المصطلحات والعبارات الصوفية وإقحامها في لغته والتكلف فيها، كان سبيله عبر مدونته الرحلية؛ ولهذا بدا التأثر واضحًا، فعباراته مقعرة وربما متكلفة، وكلماته فيها الكثير من المصطلحات الصوفية الشائكة على غير أهلها»(٣)، ولا تخرج في مضمونها عن

(١) البكري، **النحلة النصرية في الرحلة المصرية "سفر من الشام إلى مصر ١٧٢٠م–١٧٢١م"**، ٢١٨.

(٢) المصدر نفسه، ٢١٨.

(٣) ينظر البكري، مصطفى الصديقي الخلوتي الدمشقي، **الرحلة العراقية (عام ١١٣٩ هـ/١٧٢٦ م) كشط الصدأ وغسل الران في زيارة العراق وما والاها من البلدان**، تحقيق: السيد ميعاد شرف الدين الكيلاني، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠١٢)، مقدمة التحقيق ص١٣.

هذا الإطار[١].

ولكن أهم ما يميز أسلوب البكري في رحلته هو السرد القصصي القائم على تزويق العبارة والمبالغة فيها، وجمعه بين الاقتباسات العلمية من المصادر، والمشاهدات الحيَّة، والسماع، وإقحام الشعر بكثرة داخل النص، إضافة لتأثره بالنص القرآني والحديث الشريف، ولكن أبرز ما يؤخذ عليه هو التلاعب بالمصطلحات الصوفية، والمبالغة في عبارات المدح والثناء على الأشخاص، ووصف المواضع.

بيد أنَّ إدخال البكري للشعر داخل الرحلة ليس أمرًا جديدًا ابتكره؛ ولكنه أمر قديم متعارفٌ عليه، اتخذه الرحَّالة كنوع من التسلية «فغالبية العلماء والفقهاء والمؤرخين والصوفية والرحالة ممن تعاطوا الكتابة والتصنيف، نظموا الشعر، وضمنوا كتبهم مقطوعات شعرية من نظمهم، ولكن نظم البكري للشعر، لم يكن باحتراف، وإنما نظمه من باب التسلية والاستجمام الذهني، ويفتقر إلى الجزالة في الألفاظ والتراكيب، والصياغة المشرقة، والإيقاع الموسيقي المعبر. إن أسلوب الكاتب ولغته لا يختلفان عن لغة العصر الذي مثله»[٢].

ولهذا بدا أسلوب البكري في شعره أقرب إلى أسلوب أستاذه عبدالغني النابلسي، ولكنه أكثر تكلفًا بالسجع والإسراف في التنمّق اللفظي، وإظهار البراعة في استعمال الألفاظ والأساليب، والعناية بالألقاب المفخمة والألفاظ المنمقة، مشكلًا صنعة بديعية أشبه ما تكون بليّ عنق النص، فترى ألفاظها قد حشرت حشرًا بين السطور، وهذه سمة كانت تعرف بها لغة العصر الذي نشأ فيه الكاتب[٣].

وبالرغم من الاستئثار باللفظ على حساب المعنى، حتى صارت المبالغة ديدنه، والتصنع والركاكة طريقته، والتصوف مذهبه؛ فإن هذا الفعل الكتابي كان مستساغًا ومستحبًّا لدى

(١) ينظر الحزماوي، محمد، **الخمرة الحسية في الرحلة القدسية "رحلة مصطفى البكري للقدس"**، (القاهرة: مجلة معهد المخطوطات العربية، ٢٠٠٤)، المجلد ٤٨، ج١،٢، ص ١٧٥.

(٢) البكري، مصطفى، **رحلة الخطرة الثانية الأنسية للروضة الدانية القدسية**، تحقيق: عبدالرحمن مغربي وعبدالرؤوف خريوش، (فلسطين: عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، جامعة القدس، ٢٠١٥)، ص١٣.

(٣) ينظر بتصرف المصدر نفسه، مقدمة التحقيق ص ١٢- ١٣.

كُتَّاب هذا العصر، "فعلى الرغم ممّا يوصف به الأدب.. من اهتمام بالمحسنات البديعية وتجشّم عناء التكلف لها؛ فإنها كانت عند البعض دالّة على حذق فريد وقدرة على التصرف في فنون القول على نحو ما نلمس في هذه الرحلة"(١)، ولذلك لا يمكننا أن نجرح من أسلوب البكري، وأن نحكم عليه بمقاييس عصرنا، فلكل عصر مقاييسه الفنية وأدواته الإبداعية وطرائقه الكتابية.

ولهذا فإن الرحلة البكرية تعد موسوعة أدبية ودينية وعلمية تذكرنا بعصر الموسوعات وأعلامه، فهي وثيقة دالة ومعبرة عن أحوال عصره، وما اضطرم فيه من تفاعلات وتموجات عكست القيم الثقافية والسياسية والاجتماعية فيه(٢).

ومن النماذج الأدبية الجيدة التي مزج فيها البكري بين النثر والشعر في الرحلة قوله: «وزرنا أسلافنا الكرام السادة البكرية الأعلام – أمدنا الله– تعالى– بمددهم، ونفَعَنا بجَدِّهم وجَدِّهِمْ– ووقفنا قبالة وجه القطب الكبير، سيدي محمَّد– ذِي المقام الخطير–، وقرأنا له ولمن حوله فاتحة الكتاب، وأهديناها لهم راجين بهم فَتْحَ مُغْلَقِ الأبواب، وهذا الأستاذ هو القائل؛ إذ بسيف الفخر وحقَّ له صائلٌ :

ألا قُلْ لِمَنْ عَادَى لأسباطِ أحمدِ وأبناءِ صِدِّيقِ النَّبيّ مُحَمَّدِ

تَرقَّبْ سِهَامَ اللهِ وانتظِرِ البلا فإنهمُ أهلُ المقامِ المؤيَّدِ"(٣)

"... وبعد أن زرت القطب المفرد تقدَّمتُ لزيارة عم الوالد الأمجد، جناب العالم العامل الأوحد، أحمد أفندي نجل المرحوم، والد الشيخ كمال الدين البكري، نزيل دمشق الشَّام، والقاطنُ بها هو ووالده وجدُّه أحد الأعلام. وكان وفد الجدُّ المذكور من مصر إليها. ثم إنَّه استحسنها وعوَّل والسكنى عليها، وعم الوالد المرحوم ورد على مصر من الحجاز المعلوم،

(١) البكري، **النحلة النصرية في الرحلة المصرية "سفر من الشام إلى مصر ١٧٢٠م–١٧٢١م"**، ١٨.

(٢) ينظر السلوادي، **أعلام وشخصيات مقدسية**، ٢٠٧.

(٣) البكري، **النحلة النصرية في الرحلة المصرية "سفر من الشام إلى مصر ١٧٢٠م–١٧٢١م"**، ٩٥.

معزولًا عن قضاءِ مكةَ السامية النجوم.. [1]

وقلتُ في زمن الصِّبا، مادحًا أهل هذا الخبا:

أهلُ القبابِ كذا الشَّـرابُ الصَّـافي أهلُ الخِطَابِ المِسْـتَطَابِ الصَّـافِي
أهـلُ المِكَـانَـةِ والأمَـانَـةِ والتُّقَى من مَـدحهُمْ في سُـورةِ الأحقـافِ
أهـلُ الصَّـديق مقرُّهُمْ عَـالٍ بِـهِ إذ تـتـبَـعُ الأبنـاءُ لـلأسْـلافِ
فلَهُمْ بِـهِ فَضْـلٌ سَمَـا ومَـزِيَّـةٌ مَـعْـمُـورةٌ مـغـمـورةُ الأكـنـافِ
قَـوْمٌ بإمـدادِهِـم لم يُـقْـتِروا وإذا سَـقَـوْا مَنُّوا بلا إسـرافِ
مشـروبُهُمْ عَـذْبٌ لأهْـلِ وِدَادِهِمْ والْـغَـيْرُ ذاكَ لـه كسُـمٍّ زُعـافِ
جَـدُّوا لنَيلِ اللُّبِّ دُونَ تَكَاسُـلٍ وَسُـواهُمُ قد مَالَ للسَّـفْسـافِ
فهم الملوكُ السَّـاميونَ على العُلا بـل عَبْـدُهُمْ مَلِـكٌ بغيرِ خِلافِ
حَـاذِرْ أذيَّتـهُـمْ فتـلـكَ مَـطِيَّـةٌ تَـنْـحُـو بـراكِـبِـهـا إلى الإتْـلافِ
إذْ قـد أُنِيلُوا نِسـبـةً حَسَـنِيَّـةً سِـبـطِيَّـةً مَـعْـرُوفَـةَ الأعْـرَافِ[2]

... ثُمَّ إنَّ الشَّـيخ- فسـح اللهُ في أجله- توجَّه بنا مع رفاقٍ كرامٍ، إلى زيارة الوليّ المشـهور بالشَّـيخ ضِـرْغَام، فذهبنا في قياسـةٍ بحظٍّ تامٍّ، وكان صـحبنا الصَّـديقُ العوَّامُ في بحر الهيام، السَّـيد أحمَد الطَّرابلسـي، قديم حبٍّ وغرامٍ، وخَالُهُ الحاج مُحمَّد، وخالُهُ الحاج مصـطفى الأمجد، وبعض أتباعٍ وأحبابٍ وأصحابٍ، وخلَّانٍ أنجابٍ"[3].

"واتقدتْ نارُ المباسـطة والمسـامرة، وفاحت مجاهر المؤانسـة، فكانت للعقول مخامرة حتَّى أتينا محل الزيارة، والمقام الذي تُلقى لديه مراسـي كل سـيَّارة. ولما طرقنا الباب فتح لنا طفلٌ مُهاب، فقال الشَّـيخ: «طفل يفتح الباب! إن هذا لشـيء عجاب!»، وأمر أن ننظم

(١) المصدر نفسه، ص٩٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٩٧.

(٣) المصدر نفسه، ص١٩٠.

هذا المعنى ارتجالا؛ فأجبته ممتثلًا لأمره امتثالًا. وقلتُ:

قد فَتَحَ البَابَ طِفْلُ حَضْرَتِكُمْ إشارةً مِنْكمُ لِنَفْهَمَهَا
بأنَّ أطفالَكُم رِجَالُ عُلا مَوْلاي منا تَقْوَاه أَلْهَمَهَا
حَكَّمَها في الوجُودِ عَظَّمها لدى شُهُودٍ ومنها علَّمَها[1]

وفي سياق المدح يقول: "وعدنا وقد امتلأ فارغ الفُؤاد من الابتهاج والسُّرور فوق المعتاد، ودعانا لداره المعمورة، وأراني سبحة الشَّيخ المزطاري- ذي المآثر المشهُورة- وقال لي: أَعْطَانِيها الشيخ غَبّ الإجازةِ بالإرشادِ. قال: ووقع في خاطري أن أسأله عن فرد الأفراد الآن، وواحد الأغوار والأنجاد، قطب الزَّمَان، وغوث الأوانِ؛ فلم أقدر على سُؤاله إلا بعد حين»[2].

٧. جغرافية الرحلة (خط السير):

بدأت الرحلة من القدس وصولا إلى القاهرة ثم العودة منها إلى القدس؛ فكانت بدايتها في شهر جمادى الثاني سنة ١١٣٢هجرية.

أما رحلة العودة ونهاية الوصول إلى الأراضي المقدسة، فكان في شهر رجب المبارك؛ حيث وصل إلى مدينة يافا- عن طريق البحر- ليلة السبت إحدى وعشرين سنة ١١٣٣هـ، ثم أكمل المسير إلى مدينة القدس، وقد سبق وأشرت أنها كانت في حدود مطلع شهر شعبان لسنة ١١٣٣هـ.

- القدس
- الخليل.
- القدس.
- نابلس.
- غزة
- خان يونس

(١) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٢) المصدر نفسه، ص١٩٢.

- العريش
- بئر العبد
- قطية
- الصالحية
- القرين
- بلبيس
- الخانكة
- القاهرة
- الخرنفش
- ضريح السيدة نفيسة
- قبر الإمام الشافعي
- قبر الإمام زكريا الأنصاري
- قبور السادة البكرية
- قبر الإمام الليث بن سعد
- قبر سلطان العشاق عمر بن الفارض
- قبر الشيخ محمد الحنفي
- مقام سيدنا الحسين
- قبر عبدالوهاب الشَّعراني
- ضريح الشيخ محمد الكردي
- المشهد الحسيني
- مقام زين العابدي
- جامع عمرو بن العاص وعقبة بن عامر الجهني
- قرية المرحوم

- قرية مليج
- مقام علي المليجي
- قرية نفيا
- طنطا
- مقام البدوي
- مقام عبدالوهاب الجوهري
- المحلة الكبرى
- سمنود
- المنصورة
- شربين
- فارسكور
- مدينة دمياط
- عزبة البرج بدمياط(العودة منها إلى الأراضي المقدسة يوم الاثنين الموافق ١٧ رجب سنة ١١٣٣هجرية)
- يافا (وصلها ليلة السبت ٢١ رجب سنة ١١٣٣هجرية)
- القدس.

٨. البكري والسُّلطة والترويج للطريقة الخلوتية:

تعددت رحلات البكري في العالم العربي والإسلامي، وهذا التعدد يغلب عليه الوازع الديني المتمثل في نشر الطريقة الخلوتية الصوفية، وقد بدى ذلك جليًّا في كثرة عدد أتباعه ومريديه الذين قاربوا (١٠٠) المئة ألف، فأمر البكري بعدم كتابة أسمائهم لصعوبة ذلك، وقال هذا شيء لا يدخل تحت عدد(١).

فالبكري لا يترك بلدًا دخلها إلا وزار أولياءها وصالحيها ومشايخها وعلماءها كما

(١) ينظر المرادي، **سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر**، ج٤، ص١٩٢.

فعل في رحلته محل الدِّراسة «الرحلة النصرية في الرحلة المصرية»، وربما الحرص على الزيارات والإكثار منها في ربوع العالم الإسلامي يرجع إلى كون «الرحلة عند مشايخ الصوفية، لا تنطلق من مزاج شخصي، أو لأسباب كمالية فحسب، بل من مبدأ أساسي عندهم، وهو السياحة والغربة، فالسياحة عندهم هي الخروج إلى أرض الله الواسعة، لاكتشاف النفس، قبل اكتشاف المكان، فهي سياحة معرفية، فمن لم يعرف نفسه عندهم، كيف له أن يعرف ربه، أما الغربة فهي قطع العلائق بين الإنسان وبين ما حوله، ليبقى خالصًا لربه عز وجل، من خلال غربته عن الأوطان والأهل والأقارب»[1].

والمعروف عن البكري أنه لا يرنو للشهرة ولا يحبها فكان كُلَّما سكن مكانًا، وشاع خبره فيه، وقصده الناس إليه غادره إلى مكان آخر، وهذا هو ديدن العلماء والمتصوفة الأجلاء[2].

ومما عزز هذا الانتشار المسلك الصوفي ونماه هي علاقات الود والتقدير التي كانت تربط البكري بأصحاب السُّلطة، وعلية القوم، ووجهاء البلدان، والأهالي. والأمثلة على ذلك كثيرة، فعند قدوم والي مصر رجب باشا إلى زيارة بيت المقدس، حرص على زيارة مصطفى البكري، واصطحبه معه إلى القاهرة؛ حيث كان محبًّا للطريقة الخلوتية التي أسسها البكري، وألف فيها المدونات[3].

وسجل المرادي هذه الواقعة في معرض ترجمته للبكري قائلا: «قدم والي مصر من جهة دمشق، لزيارة بيت المقدس، وهو الوزير رجب باشا؛ فزار صاحب الترجمة -أي البكري-، وصار له فيه مزيد الاعتقاد. ولما ذهب إلى الديار المصرية اصطحبه معه، فدخل مصر، وأقام بها مدة. وأخذ عنه بها خلق كثيرون أجلَّهم النجم محمد بن سالم الحفني»[4].

(١) ينظر مقدمة السيد ميعاد شرف الدين الكيلاني في مقدمة تحقيقه وتعليقه على نص الرحلة العراقية (عام ١١٣٩ هـ/١٧٢٦ م) كشط الصدأ وغسل الران في زيارة العراق وما والاها من البلدان، ص٣.

(٢) ينظر المرادي، **سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر**، ج٤، ص١٩٤.

(٣) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٤) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

ومن دلالات التَّرحيب وعلامات التقدير لمكانة البكري أنه عندما سار إلى مصر قادمًا من القدس سنة ١١٦٠هـ، وقبل دخوله إلى القاهرة تلقاه رهطٌ من العلماء، ومنهم «الأستاذ الحفني ومعه خلائق كثيرون من علماء مصر، ووجوه أهلها، وأقام هناك، وهو مقبل على الارشاد، والناس يهرعون إليه، مع الازدحام الكثير، حتى إنَّه قل أن يتخلف عن تقبيل يده جليل أو حقير»[١]. وعند عودة البكري من الحجِّ إلى دمشق تلقاه وزيرها، ووجهاء أهلها، بالترحاب والإكرام[٢].

(١) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢) ينظر المرادي، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، ج٤، ص١٩٤.

الخاتمة والنتائج

أماط هذا البحث اللثام عن مصـــر العثمانية في القرن الثاني عشـــر الهجري/ الثامن عشـــر الميلادي؛ فرصـــد البكري في رحلته (النحلة النصـــرية في الرحلة المصـــرية) انطباعاته ومشاهداته، ورؤاه عن جوانب الحياة المختلفة في عصره عامة، ومصر العثمانية خاصة، فدون يومياته عن أهلها وعاداتهم وتقاليدهم وحضارتهم وثقافتهم، متطرقًا للجوانب الحياتية المختلفة؛ فكان مصـــدرًا لثقافة جامعة عن هذه الحقبة التي دون فيها رحلته، فجمع فيها بين الأدب "بشعره ونثره" وبين مظاهر الحضارة المختلفة. فضلًا عن الكشف عن جانب مهم ينماز به هذا العصر هو الجانب الصوفي الذي كان سائدًا ومنتشرًا بين أوساط العامة والخاصة آنذاك، وكان للبكري اسهاماته الكبيرة في انتشار الطريقة الخلوتية.

ومن النتائج التي خرج بها البحث:

– أن البكري يغلب عليه الموسوعية فقد شملت رحلته أحداثًا ومشاهدات وانطباعات لمصر وأقاليمها ومدنها، وقراها وعلمائها وحضارتها.

– تضمنت الرحلة فوائد: أدبية، وسردية، وتاريخية، وجغرافية، وطبية، ودينية، ومظاهر مختلفة لمصـر العثمانية في القرن الثامن عشـر الميلادي، قد لا نجدها في غيرها من المدونات التاريخية عن تلك الحقبة.

– أن الزمن الذي أمضاه المؤلف في رحلته بلغ أربعة عشر شهرًا هجريًّا من تاريخ انعقاد نيته لرحلته للقاهرة، أي في شـهر جمادى الثاني لسـنة ١١٣٢هـ. أما إذا أردنا أن نحسـب المدة الزمنية الحقيقية للرحلة بداية من قرار الانطلاق الحقيقي في شهر شوال لسنة ١١٣٢هـ فإنها تصل لقرابة العشرة أشهر هجرية.

– أن الدافع من رحلته هو الشـوق لزيارة القاهرة ومشـاهدة آثارها الخالدة، وتلبية دعوة والي مصر رجب باشا لمصاحبته في رحلته إلى الدِّيار المصرية، ودافع آخر ديني هو زيارة الأماكن الدينية والأضرحة ومقامات الأولياء والصالحين، والترويج للطريقة الخلوتية في التصوف.

– أن أسلوب البكري ينماز بالسرد القصصي القائم على تزويق العبارة والمبالغة فيها، وجمعه

بين الاقتباسات العلمية من المصادر، والمشاهدات الحيَّة، والسماع.

- يؤخذ على أسلوب البكري الإكثار من المحسنات البديعية والزخارف اللفظية، وتعداد مناقب الممدوح، والمغالاة في وصفه وذكر محاسنه، وإثقال العبارة النصية بالمبالغات الممقوتة والحشو الزائد، والتلاعب بالمصطلحات الدينية الصوفية في صياغته، ونظم الشعر وإقحامه بكثرة داخل النص.

ويوصي البحث بضرورة اهتمام الباحثين باكتشاف النصوص الرحلية المخطوطة، والعمل على تحقيقها ودراستها وإبراز خصائصها، وما تنماز به من طبائع ومشاهدات ويوميات زمن الرحلة- ربما لا توجد في أي مصدر آخر-، ولا سيما في العصور المتأخرة وتحديدًا العصر العثماني الذي يحتاج إلى مزيد من الدراسات والأبحاث؛ لنقف على حقيقة أدبه ومعارفه التي يكتنفها الغموض.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

- بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي- العصر العثماني، (١٩٩٤)، ترجمة: عمر صابر عبدالجليل - ومحمود فهمي حجازي، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب).
- البكري الصديقي، مصطفى ت(١١٦٢هـ/ ١٧٤٩م):
  - الرحلة العراقية (عام ١١٣٩ هـ/١٧٢٦ م) كشط الصدأ وغسل الران في زيارة العراق وما والاها من البلدان، (٢٠١٢)، تحقيق: السيد ميعاد شرف الدين الكيلاني -، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١.
  - النحلة النصرية في الرحلة المصرية "سفر من الشام إلى مصر ١٧٢٠م-١٧٢١م"، (٢٠٠٢٠)، تحقيق: محمد فتحي الأعصر، أبو ظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع- أبوظبي، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت، ط١.
  - رحلة الخطرة الثانية الأنسية للروضة الدانية القدسية، (٢٠١٥)، تحقيق: عبدالرحمن مغربي ود. عبدالرؤوف خريوش، فلسطين: عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، جامعة القدس.
- الجبرتي، عبدالرحمن بن حسن ت(١٢٣٧هـ/١٨٢٥م)، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، (د.ط)، دار الجيل، بيروت.
- جكلي، زينب بيره، (٢٠٠٧)، النثر في عصر الدول المتتابعة، عمَّان: دار الضياء للنشر والتوزيع.
- الحزماوي، محمد، (٢٠٠٤)، الخمرة الحسية في الرحلة القدسية (رحلة مصطفى البكري للقدس)، القاهرة: مجلة معهد المخطوطات العربية، القاهرة، المجلد ٤٨، ج١،٢.
- الدرعي، أحمد بن محمد بن ناصر، (٢٠١١)، الرحلة الناصرية، ط١، تحقيق وتقديم: عبدالحفيظ ملوكي، أبو ظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع.

- الزركلي، خير الدين ت(١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م)، (٢٠٠٢)، الأعلام، (ط١٥)، بيروت: دار العلم للملايين.
- زيدان، جرجي، تاريخ آداب اللغة العربية، (د.ت)، راجعها وعلق عليها: شوقي ضيف، (القاهرة: دار الهلال).
- السلوادي، حسن، أعلام وشخصيات مقدسية: بحث بعنوان "الشيخ مصطفى البكري الصديقي الدمشقي المقدسي الخلوتي، حياته وآثاره"، د.ن.
- أبوشامي، علي، (٢٠١٧)، التصوف والطرق الصوفية في العصر العثماني المتأخر، (ط١)، بيروت: بيسان للنشر والتوزيع.
- المرادي، محمد بن خليل ت(١٢٠٦هـ/١٧٩١م)، (١٩٨٨)، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، (ط٣)، بيروت: دار البشائر الإسلامية، ودار ابن حزم.

Sources and references

- The Holy Quran.
- Brockelmann, Carl, History of Arabic Literature - The Ottoman Era, (1994), translated by: Omar Saber Abdel Jalil - and Mahmoud Fahmy Hegazy, (Cairo: The Egyptian General Book Organization).
- Al-Bakri Al-Siddiqi, Mustafa T. (1162 AH / 1749 AD):
- The Iraqi Journey (in the year 1139 AH / 1726 AD) scraping rust and washing the ranch in visiting Iraq and its neighboring countries, (2012), investigation: Mr. Maad Sharaf Al-Din Al-Kilani -, Beirut: Dar Al-Kutub Al-Alami, 1st edition.
- The Victorious Bee in the Egyptian Journey “A Journey from the Levant to Egypt 1720 AD-1721 AD”, (20020), investigation: Muhammad Fathi Al-Aasar, Abu Dhabi: Dar Al-Suwaidi for Publishing and Distribution - Abu Dhabi, and the Arab Institute for

Studies and Publishing - Beirut, 1st edition.

- The Journey of the Second Insular Danger of the Holy Advance Kindergarten, (2015), investigation: Abd al-Rahman Maghribi and Dr. Abdul Raouf Khreyoush, Palestine: Deanship of Scientific Research and Graduate Studies, Al-Quds University.
- Al-Jabarti, Abd al-Rahman bin Hassan T. (1237 AH / 1825 AD), Wonders of Athar in Translations and News, (Dr. I), Dar Al-Jil, Beirut.
- Jakali, Zainab Birah, (2007), Prose in the Age of Successive States, Amman: Dar Al-Diyaa for Publishing and Distribution.
- Al-Hazmawi, Muhammad, (2004), Sensual Wine in the Qudsi Journey (Mustafa al-Bakri's Journey to Jerusalem), Cairo: Journal of the Institute of Arabic Manuscripts, Cairo, Volume 48, Part 2, 1.
- Al-Dari, Ahmed bin Muhammad bin Nasser, (2011), The Nasiriyah Journey, 1st Edition, investigation and submission: Abdul Hafeez Maluki, Abu Dhabi, Dar Al-Suwaidi for Publishing and Distribution.
- Al-Zarkali, Khair Al-Din T (1396 AH / 1976 AD), (2002), Al-Alam, (15th edition), Beirut: Dar Al-Ilm for Millions.
- Zaidan, Jerji, History of the Literature of the Arabic Language, (Dr. T), reviewed and commented on: Shawqi Dhaif, (Cairo: Dar Al-Hilal).
- Al-Silwadi, Hassan, Notables and Jerusalemite Personalities: A Research Entitled "Sheikh Mustafa Al-Bakri Al-Siddiqi Al-Dimashqi Al-Maqdisi Al-Khalouti, His Life and Works", Dr. N.
- Al-Moradi, Muhammad bin Khalil T. (1206 AH / 1791 AD), (1988), Silk Al-Durar in the notables of the twelfth century, (3rd edition), Beirut: Dar Al-Bashaer Al-Islamiyyah, and Dar Ibn Hazm.